الثقافة بين الفكر والغاية

بقلم عبد اللطيف شرارة

هناك ظاهرة اكيدة ، هي ان « الطبقة المثقفة » تجتاز اليوم في ديار العرب ، شأنها في ديار غيرهم ، مرحلة « بلبلة » ، حتى لتنعكس هذه البلبلة في الشعر ، في القصة ، في الادب المسرحي (السينمائي)، واخيرا في مسالك الناس الاجتماعية والسياسية . وتبرز اكثر ما تبرز في النقد على انواعه أدبيا كان أم فنيا ، أم سياسيا ، بنسبة ما تبرز في الملاحظات العابرة والاعتراضات الطارئة التي يوجهها المثقفون انفسهم الى المثقفين ، وبها يحمل بعضهم على بعض من غير أناة ، ولا هوادة . وفيهم من يغلو به شعور النقمة حتى ليتهم الثقافة نفسها جملة وتفصيلا، وينحي باللائمة على كل من هو مثقف !

يجب ان ابدأ بالبيان ان هذه الظاهرة نفسها دليل يقظة ، ومظهر تحسس بما ينبغي أن يكون ، حيال ما هو كائن ، رغم كل هذا الغموض الرائن على الاذهان في فهم ما هو كائن ، وتصور ما ينبغي ان يكون . وليس لها من تفسير صحيح سوى انتفاضة الفكر العربي المعاصر في مواجهة الواقع الذي اخذ ينهد الى تغييره ، و « يعمل » فعلا على نقله الى واقع ارقى واغنى واحفل بالنور والحياة . وكل انتفاضة يواكبها ضرب من البلبلة ، ثم لا تلبث أن تهدأ ، بعد ان يطمئن المنتفضون الى غاية ، ويسيرون على نهج ، وينطلقون من فكرة . والهدوء كفيل بتبديد البلبلة ، ومداواة العلل التي افضت اليها ، ونجمت عنها .

ـ ١ ـ

الامر الذي خفي ولا يزال خافيا على اكثر العيون والاذهان ان ما من ثقافة في العالم تعيش او تظهر منعزلة عن غيرها من الثقافات ، واذا هي انعزلت ظلت فقيرة ، منطوية على نفسها ، غريبة في محيطها ، فلا تمضي عليها مدة من الزمن ، وهي على تلك الحال ، حتى يسري اليها الجمود ، وتجف عروقها ، وتندثر .

يؤيد ذلك ان اكثر النهضات الثقافية المعروفة في تاريخ العالم ، كانت تستهل وجودها كنهضة ، بالاقتباس من غيرها ، والاقبال على الترجمة ، والافادة من الرحلات .

هكذا كان العصر الذهبي الاغريقي نتيجة اتصال الاغريق بمصر في جانب ، وبابل في جانب ، وبلاد فارس في اخر جانب . وهو هو شأن النهضة العربية في العهود العباسية الاولى ، يوم راحوا ينقلون آثار الفرس والهنود والاغارقة ، و « تنزه » عقولهم في روائعها . وهو اخيرا شأن الثقافة الاوروبية المعاصرة التي ترعرعت على أيدي العرب ، ونمت اقتداء بهم ، واتباعا لخطاهم ، وافادة من جهودهم .

كانت فكرة العرب التي انطلقوا منها في جهودهم الثقافية الاولى ، هي « ان الحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث وجدها » ويلتقطها انى لقيها . وكانت الحكمة قيمة في ذاتها ، وغاية يجاهد المجاهدون من أجلها ، ويضحون في سبيلها بكل غال ورخيص . وهذا ما أعانهم كل العون ، على فهم الشعوب ، ويسر لهم سبل التعاون معها .

وأول ما يفرضه التعاون بين الناس ، أيا كان الاطار الذي يجمعهم، انما هو الفهم المتبادل بحيث يقدر كل فرد منهم ظروف غيره من الافراد، ويدرك ما لدى الاخر من الكفاءات ، والامكانات ، والوسائل ، وطاقات العمل .

هذا الادراك ، وذلك التقدير ، امران اساسيان لا يمكن التخلي عنهما بحال ، في كل عملية فهم ، وهما لا يتحققان بسهولة ، كما لا يمكن حمل الناس على تنفيذهما بالقوة . انهما ذاتيان بكل ما في الذاتية من معنى . واذا كانت هذه هي ميزتهما الجوهرية ، فذلك يفيد ان على كل انسان ان يسعى من تلقاء ذاته للاضطلاع بهما ، او السير الجاد الصامت نحو بلوغهما ، مهما كانت المشقة شديدة ، وثقل عبء الاضطلاع. وليس الادب ، في مضمونه الحقيقي ، سوى هذين .

الادب الحقيقي ان تقدر ظروف الاخرين ، وتدرك ما يستطيعون ان يفعلوا ، فلا تتجاوز طاقاتهم ، او تغفل ظروفهم فيما تأمل منهم أو تريد ، او بما تنقد من احوالهم ، وتصدر عليهم من احكام . وما كان الادب يوما من الايام موضع احترام ، واعزاز ، واكرام ، الا لان صاحبه يتحلى، او يفرض فيه ان يتحلى ، بتلك الصفات الحبيبة الى القلوب ، المنبئة عن كرم في الخلق ، ورجاحة في العقل . الادب حلية وليس صنعة ، وهو في حد ذاته غني ، يظل العاطل منه فقيرا ، ولو عدت ثروته بالملايين ...

وقد يكون ابرز ما يوضح جوهر الادب في هذا الموضوع ، أن نبين نقيضه ، اخذا بالقاعدة القائلة : « والضد يظهر حسنه الضد » .

ونقيض الادب انما هو « السفه » أو السفاهة . والسفيه على التحقيق ، هو الذي يتجاوز ظروف غيره ، ويتخطى الحقائق والامكانات، ويسيء النقد ، ويسعى في فرض رغباته ، وعواطفه ، واحلامه على الاخرين ، ويحكم بهواه احكاما تنم عن سقم في الفهم ، وسوء في القصد ، ثم تتبدل احكامه بتبدل عواطفه ورغباته ، ويبدو لعينيه سيئا ما كان يراه أمس حسنا ، ويرضى اليوم عما يغضبه غدا ، فلا يستقر على رأي ، ولا يطمئن لموقف ، ولا يقتنع بحجة ...

تلك هي السفاهة في حقيقتها النفسية . ولا سبيل الى التفاهم مع السفهاء ، ولا بالتالي ، الى التعاون معهم ، وهذا ما جعل الادب ضرورة ملحة في بناء كل مجتمع بشري يريد أن يحيا حياة متوازنة ، سليمة . وبدونه يظل المجتمع في تخلخل متصل ، واضطراب لا قرار له، اذ يمتلىء ، حين يخلو من الادب الحقيقي ، بالسفاهة والسفهاء ، ولا يتاح لابنائه من ثمة ان يتفاهموا ، ولا أن يتعاونوا .

لا نزال في منطقة الوضوح من الموضوع ، فالجميع يوافقون على لزوم الادب لاحراز الفهم المتبادل ، ولا يجادل أحد في وجوب التخلص من السفهاء . ولكن الجو الفكري يأخذ في التبلد والاكفهرار ، ساعة نواجه قضية التفاهم الصحيح ، من خلال الاهتمامات المتعددة المتغايرة لدى الناس .

وهذه الاهتمامات انما تتعدد بتعدد نواحي الحياة من علم ، وفن ، وادب ، واقتصاد ، واجتماع ، وسياسة ـ وهذه كلها من فروع الثقافة ، وكل فرع منها أصل تنشأ منه فروع ـ . والاهتمامات تتغاير كذلك بتغاير الامزجة ، واختلاف الطباع . وقل ان تجد ذا ميل الى فن من الفنون يطمئن او يستريح الى ذي ميل يغايره . وهكذا ... تتعارض الميول ، وتتصادم الامزجة والاذواق ، او ينعزل بعضها عن بعض ، لاختلاف في وجهة الاهتمام . أو لجهل فئة بما يدور في حياة الفئة الاخرى ، من شؤون واشجان . وقديما قيل : « الناس اعداء ما جهلوا » . ولا سبيل الى جمع الاضداد من الناس ، وحملهم على التفاهم الا عن طريق الادب ، وهو ابرز وجوه الثقافة ، وأعم فروعها ، واجمل مظهر من مظاهرها .

لقد كتب مرة الرحالة الفرنسي الشهير هنري ده مونفريد يقول : « الطائر الذي يحلق في اجواز الفضاء ، يجهل ما يعج في أوحال

المستنقعات . وان هذا ، من جهة اخرى ، لهو الوهم الخطير لدى اولئك الذين يقلهم حلم من الاحلام ، الى درجة من العلو ، يضيعون معها عن رؤية بشاعات العالم . هكذا ينسون ان جمهرة كبيرة تناصبهم العداء ، وهي تراقب تحليقهم ، وتنتظر بصبر ، سقوطهم » .

هنا ، يطلب ، تلافيا للخطر ، ان يكون الفهم من جانب واحد ، ولا يعقل بعد ان يكون متبادلا . لقد اختلف عالم الطائر المحلق عن عالم الضفدعة التي تنق في الوحل . وعلى الطائر وحده ان يدرك ما يجول في قرارة الضفدعة ، وان يتدبر في الوقت نفسه ، ما يتقي به اثر ذلك في حياته ، ويعمل بصمت على الاحتفاظ بهدوئه ، ومتابعة تحليقه بروية واناة ، حتى اذا حان موعد هبوطه ، نزل كما ارتفع ، برباطة جاش وكرامة ، ولديه القدرة على معاودة التحليق .

وتلك هي الثقافة الصحيحة . الثقافة تقتضي صاحبها مرونة ، وقدرة على الاستيعاب والتسامح . والثقافة التي هي محض كفاءة في علم او فن او تقنية ، تظل ناقصة اذا لم يتزود صاحبها بالمهارة في استعمالها ، حسب ما يضمن الفوز في مراسها ، وبلوغ اهدافه منها .

والمرونة المنشودة في هذا المقام ان تكون الاهداف خيرة ، سليمة ، وواضحة في سلامتها وخيريتها ، مما يجعل صاحبها قادرا ايضا على « افهام » الاخرين انه يريد بهم الخير ، ويضع مواهبه في خدمتهم ، وان كانوا لا يفهمون تلك المواهب ، ولا يقدرونها ، لتغاير في وجهة الاهتمام بينه وبينهم . وبهذه الطريقة يصبح الفهم من جانب واحد ، شاملا حتى يغدو مع الزمن ، والعمل ، متبادلا ، وينعقد التعاون بين جميع الاطراف ، على الخير العام المشترك .

ـ ٢ ـ

هذه الاعتبارات التي تكاد تكون رياضية في دقتها ، تقودنا الى بقعة من الوضوح قل ان ادركها المجموع في أي شعب او امة ، الا وهي ان الثقافة ليست معرفة وحسب ، وانما هي « سلوك » قبل ان تكون معرفة ، والمثقف الحقيقي هو الذي يسلك بوحي من افكار صحيحة ، نحو اهداف نبيلة ، في حياته العملية ، و « يتمركز » على الدوام ، في جو لا يبارحه ، من السعي المتواصل وراء تفاهم الناس وتعاونهم .

واذا كان الفهم المتبادل هو الشرط الاساسي والاولي لنشوء تعاون صحيح ، نزيه ، فعال ، بين الناس ، بين ابناء مجتمع واحد ، ومجتمعات مختلفة ، بين المواطنين ، فان حكمة التصرف تاتي في الدرجة التالية ، او هي تاتي موازية لذلك الشرط في القيمة من حيث تاثيرها في نشوء التعاون ونموه واثماره .

وحكمة التصرف مع الاخرين تعني على الدوام ، تحامي الاساءة اليهم ، وتجنب كل ما يجرح كرامتهم او يؤدي الى نفرتهم ، وضبط النفس حيال انفعالات غير سارة تبعثها اعمال السفهاء او بعضها ، ومظاهرهم أو جزء منها ، وتصرفاتهم او ما يريبنا فيها . ولكنها لا تعني في الوقت نفسه ، ان يخسر المرء استقلال شخصيته وحرية رايه ، او ان يضرب صفحا عن حقيقة ذوقه ، ويلغي عواطفه وعقائده ازاء غيره ، فهي بذلك ضرب من التوازن الرياضي الدقيق بين واجبات المرء تجاه غيره ، وواجباته تجاه نفسه ، بين حقوق غيره المشروعة ، وحقوقه المشروعة ايضا .

هذا التوازن لا يتحقق بمجرد الرغبة في احرازه ، ولا يتم في أن نحلم به ، وانما يحصل ، اذ يحصل ، بامرين : المعرفة ، والتدرب. وكل من هذين يقتضي بذل جهود خاصة ، واعية ، يقوم بها المرء في تحصيل العلم في جانب ، وحيازة الدربة العملية في جانب آخر ، ليطبق علومه في شؤون الحياة ، ويعمل بما يفرضه هذا العلم من ضرورات التفهم ، وحسن التقدير ، ونفاذ الادراك الى امكانات الآخرين ضمن ظروفهم الآنية ـ هذه الامكانات تختلف بين ظرف وظرف ، وزمن وزمن ـ ووسائلهم ، وطاقاتهم . واذا كان « العلم بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر » فان معرفة الحكمة بلا تصرفات حكيمة ، ضرب من السفه والثرثرة !

لا يكفي اذن أن يكون الانسان ، والمثقف خاصة ، عالما بالادب مثلا ، عارفا لقواعد الحكمة ، مطلعا على كثير من أسرار الطبيعة والنفس والحياة ، ملما بالقوانين التي تسير هذه الثلاث . الحكمة الحقيقية أن يتحول الانسان الى « حكيم » في تصرفاته ، وأن يستخدم المعلومات الصحيحة ، لبلوغ غايات صحيحة أيضا ، لان هنالك غايات لا يصح أن يجهد في سبيلها أحد ، ولا يجوز أن يضعها المثقف خاصة ، نصب عينيه ، كاغتصاب حقوق الاخرين ، والنيل منهم ، والتعرض المشين لكراماتهم ، والتباهي بالمظاهر الفارغة ، وادعاء التفوق . وما أشبه من غايات يعرفها التاريخ لدى أقوام حققوها ، وكانت سببا في هوانهم ، وانحلال مجتمعاتهم .

ان من شأن هذه الغايات أن تحول العلم الى جهل ، والادب الى سفه ، والمنطق الى سفسطة ، والفن الى شعوذة ، والاقتصاد الى جشع ، والسياسة أخيرا الى نفاق وحذر . وهذه التحولات ـ وهي مترابطة ـ ترد الاجتماع البشري بدورها ، الى وضع حيواني ، لا يملك معه الناس أن « يتفاهموا » ، ولا أن « يتعاونوا » ، رغم كل ما أوجدوا من لغات ، وجامعات ، ومؤسسات ، وكل ما لديهم من علوم وآداب وفنون ...

وتلك هي ازمة الثقافة الحديثة في بلدان أوروبا الغربية وأميركا الشمالية .

ـ ٣ ـ

ها نحن ننتقل الى التاريخ ، ولا معدى لنا عن الرجوع اليه في كل محاولة لفهم الحاضر ، وقد رأينا ان السمة الكبرى للنهضات الثقافية في العالم ، انما هي تواصل الشعوب ، واطلاع الشعب الآخذ بالنهوض على ثقافات الشعوب الاخرى ، والقانون الشامل الذي قل من التفت اليه ، عند تفسير هذه الظاهرة ، وأمثالها في حياة الامم ، هو « ترابط الثقافات البشرية » ، فالنهضة التي سجلتها فرنسا مثلا في القرن الثامن عشر وأفضت الى قيام الثورة الكبرى ، انعكس اثرها من بعد في أنحاء العالم كله ، وتوغل صداها حتى أسمع من بهم صمم . وكذلك هي حال الامة الروسية في النصف الثاني من القرن المنصرم ، والنصف الاول من هذا القرن .

أما السر في هذا الترابط العضوي بين الثقافات البشرية ، فانه يعود الى « وحدة الفكر » . الفكر لا يعرف الحدود التي يتواضع عليها البشر ، ولا يميز بين لون ولون في انبثاقه ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين بلد وبلد ، ولا بين عصر وعصر ، فاذا اكتشف جابر بن حيان حقيقة من حقائق الكيمياء ، كان في موقفه ذاك لا يختلف عن موقف زميله لافوازييه العالم الكيمائي الفرنسي ، ولا دخل لعروبة ذاك وفرنسية هذا ، ولا تاثير في الامر للون كل منهما ، وعرقه ، وعقيدته ، وعواطفه . وما يقال في جابر ولافوازييه ، يقال في علماء الارض كلها ، في مختلف الفروع العلمية وجميع أنواع المعرفة .

هذا الترابط الثقافي يهدينا ، بوصفه قانونا ، الى السياق التاريخي الذي نشأت به ومنه أزمة الثقافة العربية المعاصرة . وسيجد القارىء ويقتنع ان العرب كانوا « ضحية » الثقافة الغربية المغلقة على غربيتها ، في كل ما أصابهم على صعيد الثقافة ، وفي كل ما يزال يصيبهم ، حتى في عقر ديارهم ، من بلبلة وملاحاة (تبادل التهم) واضطراب ، وسأم :

كان من اثر الحروب التي خاضها نابليون وانتهت باخفاقه أن سرى الشك في النفوس الاوروبية ، الى القيم التي تعود الشرقيون الايمان بها ، وقد لقيت من قبل سندا ودعامة في ديكارت ومدرسته ، ثم في فلاسفة القرن الثامن عشر ، وحتى في المبادىء الاولى للثورة

الفرنسية ، فلما أخفق نابليون على أيدي رجال مثل مترنيخ ، وغيره من ساسة أوروبا المناوئين للمبادىء الجديدة ، في انكلترا على الاخص ، نشأ جو روحي فكري ، يقف على طرف النقيض من الجو الذي أفضى الى قيام الثورة ، أي الى انكار للعقل بمعناه الاخلاقي ، والسير وراء المغامرة ، والاسترسال مع الرغبات والغرائز والانفعالات ، اذ حسب الاوروبيون في جملتهم ، لا بالتفصيل ، ان اخفاق نابليون يعني اخفاق مبادىء الثورة ، ويقدم الدليل على فساد الاسس والقواعد التي قامت عليها . والذين ظلوا مع الثورة ومبادئها ، تصيتهم من نابليون فتوحاته ، ومغامراته ، وبطولاته العسكرية ، وما أتيح له أن يحقق من سطوة وسلطان ، أي ان حوادث القرن التاسع عشر من بدايته الى نهايته ، وقعت في أوروبا وأميركا ، وكأنها تنطوي على « مؤامرة » في جوانبها السلبية والايجابية ، على العقل ، والفضيلة ، والشعور الانساني الصحيح . واختفت بذلك أحاديث الحكمة ، والتعاون ، والمحبة ، والمنطق ، والايثار ، مع نيتشه وشوبنهور وفرويد وداروين وبرغسن . وتحول الادب مع هؤلاء الى « حرفة وصف » يمارسها المحترفون كل حسب قدرته على الملاحظة الداخلية ، ومعظمهم يصدر فيما يكتب عن تأثر بهذا أو ذاك من أولئك الفلاسفة والمفكرين . أما المبدعون مثل دوستويفسكي ، وأناتول فرانس ، وأندره جيد ، فليس لدى الاشخاص الذين صوروهم سوى الانحراف ، والانغماس في حمأة الرذيلة ، والشذوذ ...

كانت القيادة الفكرية في أوروبا اذن ، غير صالحة ، وهي القيادة نفسها التي انتقلت فكريا الى اميركا ، وموروست هناك على نحو برز من بعد اكثر فعالية ، وأعمق أثرا . وقد برز عدم صلاحها على الصعيدين : الاجتماعي والسياسي ، اذ كانت هي السبب في نشوء الفاشستية والنازية ، وهي الباعثة على تعطيل المضمون الصحيح للحرية ، والكرامة الانسانية . وليست الماركسية نفسها الا رد فعل لمساوىء تلك القيادة ، اذ وجدت في البسطاء من العمال والفلاحين من المعاني الخيرة ، والتطلعات النبيلة ما لم تعثر على مثله لدى الذين كانوا ينعتونهم بـ « الغبلاء » ، ويتمتعون بالالقاب الرفيعة ، والامتيازات المادية ، فكانت فكرة الطبقات ، والصراع الطبقي ...

وكانت البلاد العربية في هذه الاثناء ، والشرقية على العموم ، لا تزال تعاني آثار الانهيار الحضاري الذي أصابها ، منذ فقد العرب السلطة في بلادهم ، وعلى مقدراتهم ، وقد أثبت التاريخ صحة ما بينه دوزي ان « الشرق لا ينهض الا بنهوض العرب » . وحين تلقى هؤلاء العرب الرازحون آنذاك تحت انقاض الماضي ، ثقافة اوروبا ، لم يتلقوها كأحرار ، ولا أتيح لهم ان يعملوا في معطياتها روح النقد ، وانما فرضت عليهم فرضا باعتبارها ارقى من ثقافتهم واغنى من جهة ، ولانها فيما كان شائعا ، هي المقدر لها ان تتغلب وتنتصر وتسود من جهة اخرى ، ولم يدر ببال احد من الطرفين ، ان الثقافة شيء ، والغلبة العسكرية شيء آخر ، وان هذه الغلبة يمكن ان تكون ، في بعض الحالات ، لا كلها ، علامة انحطاط وتقهقر .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، أصبح لنيتشه وفرويد وداروين وماركس وبرغسن اتباع وانصار في البلاد العربية ، وفقدت هذه البلاد روابطها ، في الظاهر ، مع ثقافتها الاصيلة ، ونشأت فيها الحركات ، والمدارس الادبية ، والحزبيات السياسية التي نشأت في كل من أوروبا ، واميركا ، دون ان تمثل ، في الواقع ، شيئا من أصالتها الثقافية .

— ٤ —

كان العرب اذن ، ضحية القيادة الثقافية السخيفة التي عمت سطوتها رقاعا واسعة من أديم أوروبا وآسيا واميركا ، فضلا عن أفريقيا ، ولا يختلفون في ذلك عن غيرهم من الشعوب — الضحايا ، وقد اوضحنا ان الترابط الثقافي قانون حضاري ، لا معدى عن لحاظه لدى كل محاولة فهم دقيق للتاريخ ، وبالتالي ، للواقع . وانا لنجد حتى نقاد الادب الحديث في البلدان العربية يقعون « فريسة » المقولات ، والكليشيهات ، والعبارات الفلسفية الشائعة في ديار أوروبا واميركا . وليس أسهل على الناس ولا أيسر من الصاق النعوت السارية ، والاتهامات التقليدية بكل الناس ، تماما كما هي الحال بين الاحزاب والعقائد والمذاهب الاجتماعية المتنافرة السائدة في ديار الغرب .

أما أين تكمن ثغرات الفراغ ، او نقاط الضعف في تلك القيادة الفكرية الغربية ، فهذا ما يتاح اكتشافه ، عند تحري الحقيقة في الفكرة من جهة ، والغاية من جهة اخرى ، ثم في التمثلات العملية للفكرة ، وما تفضي اليه .

لنأخذ مثلا على ذلك فكرة نيتشه في « ارادة القوة » و « الانسان الاعلى » . انها من وحي الانانية الخالصة ، وليس لها من سند في واقع الحياة الاجتماعية العامة ، ولا كانت بما تقدم من امثلة تاريخية ، تفضي الى غير النكبات ، والاضطرابات ، والكوارث ، لان سعي كل انسان لان يكون هو الاعلى ، أو حمله على التمتع بأكبر قسط من القوة ، يكفي من الحساب ارادة « الآخر » فلا يبقى من بعد أي باب للتفاهم ، ومن ثمة للتعاون في المجتمع الواحد ، ثم بين مجتمعات بشرية أخرى متنوعة ، وفي هذا عودة بالناس الى عصور الغاب ، وتعطيل للقوانين الخلقية والعادلة ، وتبرير للتصرفات الجائرة . وهذا كله مما ثبت فساده ، واستحالة نمو الحضارة واتساعها ، معه . وليست النازية والفاشستية الا بعض معطيات هاتيك الافكار التي بهرت ذوي العقول الضعيفة ، وحاملي النفوس الخالية من كل رفق ، وأدب ، وسماحة .

وكذلك هي الحال في فكرة فرويد عن « الجنس » وفكرة داروين عن « تنازع البقاء » و « الانتقاء الطبيعي » وفكرة ماركس عن « طغيان الجانب الاقتصادي » ، وفكرة برغسن عن « طغيان الحدس » ، وفكرة اينشتين عن « النسبية العامة » ، وفكرة ادلر وراسك عن « السيطرة والسلطة » .

كل هذه الافكار أساءت للانسان الاوروبي — الاميركي ، وبالتالي للحضارة ، حين حصرته — فكريا — في دائرة ضيقة من طبيعته الطليقة الغنية التي تشتمل دون ريب ، على كثير من الاشياء التي بينها هؤلاء المفكرون ، ولكنها ارحب واقوى من ان تنحصر في واحدة منها . وقد استطاع هتلر ان « يجمع » من الوسائل والامكانات في مدى عشرين سنة (١٩١٩ — ١٩٣٩) ما سمح له بتحقيق « جزء » ، وان ضئيل ، من مطامحه وافكاره ، ولكن جمع الوسائل أمر يختلف كل الاختلاف عن الغايات ، فاذا كانت الفكرة الكامنة وراء العمل خاطئة ، وكانت الغاية التي يهدف اليها العمل سيئة ، أي تنطوي على اساءة للاخرين ، فلا يمكن الوسائل وحدها مهما بلغت من القوة ، والضخامة ، والفعالية ، ان تؤدي الا الى تحطيم أصحابها ، وتفضح اخيرا أهدافهم ، ومدى ما كانوا عليه من قصر في النظر ، وسوء ادراك للواقع ، وضعف في حاسة التقدير .

على ان الاخطاء الكبرى ، البالغة الخطورة كأخطاء ، والتي وقعت فيها الثقافة الغربية بوجه عام ، انما كانت هاتيك النظريات في التاريخ التي لا حصر لها ، وكلها تصورات ، ومضاربات فكرية وسياسية ، نشأت بجملتها عن اغفال الحقيقة بين الفكرة والغاية . التاريخ وقائع ، وما هو بنظريات او تصورات . التاريخ آثار ، ومعطيات حسية وجغرافية ، وحقائق علمية ، وهذه كلها قائمة في الحاضر ، فلا يمكن ان يكون التاريخ « بعيدا » عن الحاضر ، وهو ذو سياق منطقي ، لا يصح أن يخفى بقضه وقضيضه عن العيون والاذهان . التاريخ ليس أساطير ، وحكايات خيالية ، وتصورات لآلهة والاهات ، ولا هو تحقيق لعواطف قومية ، واحلام فتح وسيطرة ، ومظاهر امجاد ، أو اصطراع على ثروة او مغنم . التاريخ حياة فيه ما فيها بالضبط ، من حقائق واوهام ، واتراح وافراح ، وارقام وقوانين . ولذا ، كان الحاضر اكبر شاهد عليه ، وافصح معبر عنه ، فاذا فهمناه فهمنا التاريخ ، ولا يتاح لنا فهمه الا بالتقاط السياق الذي يجري فيه ، والجذور البعيدة والعميقة أحيانا للوقائع التي نشهدها ، ونحيا في جوها ، في جميع النواحي والاوضاع والمستويات .

ومثلنا على ذلك فلسطين ، فهذه قضية تاريخية وسياسية حسب مثقفو الغرب ـ واتباعهم ـ انها تقدم الدليل على ضحالة الثقافة العربية ، وضعف أثرها الحضاري في بناء الانسان العربي . وهي ، اذا دققت فيها ، وجدت ان اوروبا واميركا هما اللتان « اوصلتاها » الى هذا المأزق ، دون ان تشعرا ، لان فكرة « الدولة اليهودية » التي نادى بها تيودور هرتسل كانت خاطئة من الناحيتين : الوطنية والانسانية . فاليهودي الذي يطمح الى دولة تحمل طابع دينه ، يكف عن ان يكون روسيا في روسيا ، والمانيا في المانيا ، وفرنسيا في فرنسا ، وهلم جرا ... ثم يضيع عن انسانيته ، تبعا لضياعه عن وطنيته ، ويتحول الى « جاسوس » في البلد الذي لا يواليه ، ويفقد مع شعوره الخفي الدفين بعزلته عن المجتمع الذي يعيش فيه ، انه منبوذ ، وان لم يتعرض له احد بسوء . وكذلك كانت هي الغاية من فكرة الدولة اليهودية .

اليهود حسبوا انها تقيهم من الاضطهاد ، ومرض العزلة ، وذل الاضطهاد ، ومغبة الفقر والجوع ، وتشفيهم أخيرا من « عللهم » التاريخية .

والالمان قبل هتلر حسبوا انهم يخلصون منهم ، وينتهون من « مشاكلهم » التي لا يظهر آخرها حتى يعود أولها .

والانكليز حسبوا ان الدولة اليهودية توضع تحت حمايتهم الى الابد ، وعن طريقها يتأمن لهم اتصالهم بممتلكاتهم وراء البحار ، وتضمن مصالحهم في الشرق والغرب .

والفرنسيون لم يعترضوا على الفكرة من وجهة انسانية ، اذا صح انها تشفي اليهود من امراضهم المزمنة ، وتيسر بعض الاستقرار لهم ، ولاوروبا الغربية .

والروس كانوا خلال الربع الاخير من القرن الماضي قد ضاقوا ذرعا باليهود ، وجمعياتهم السرية والعلنية ، وتصرفاتهم الاجتماعية النابية ، فلم يولوا قضيتهم « السياسية » شيئا من الرعاية ، وتركوا لاوروبا الغربية ان تتحمل أوزارها وتبعاتها .

والاميركان اخيرا اخذوا بهذه النظريات والافكار جميعها في الظاهر ، ولكن موقفهم الحقيقي ، أصبح بعد الحرب العالمية الثانية ، هو موقف الانكليز نفسه ، قبل تلك الحرب .

والمعنى التاريخي لذلك كله ، ان « الغاية » من انشاء دولة لليهود اختلفت ، ولا تزال ، باختلاف كل أمة ودولة . فأين هي تبعة العرب في هذه الافكار ، والغايات ؟! دعك من الاساليب والوسائل التي استخدمت في نقل الفكرة من حيز الخيال الى الواقع !

لقد كان « تصريح بلفور » بكل ما وراءه ، وكل ما جاء على اثره ، دليلا واضحا على ضعف القيادة الفكرية في الثقافة الاوروبية ـ الاميركية ، وشاهدا لا يكذب ، ولا يمكن تكذيبه ان العرب ، وعرب فلسطين على الاخص ، وقعوا ضحية مؤامرة على الثقافة ، والحضارة برمتها ، ومذ اخذت هذه المؤامرة تنكشف ، كان السهم قد نفذ ، ولكنه عاد فارتد الى صدور المتآمرين ، ولا يزال الآن سائرا ، في طريق ارتداده هذا ...

— ٥ —

ليست العلة اذن في ثقافة العرب المعاصرة ، ولا هي في ثقافة فرنسا ، ولا في ثقافة روسيا المعاصرة ايضا ، حتى ولا يمكن تبين شيء من جذورها في الثقافات الشرقية القديمة مثل فارس والهند والصين. العلة في الثقافة العبرية ، في التوراة ، وعلى الاخص الاخص في « التلمود » ، أي في هؤلاء الذين ينفذون بعض ما في التوراة من افكار واستراتيجية ، ويطبقون كل ما ورد في التلمود من تعاليم ... وكل تشخيص غير هذا التشخيص ينأى بالفكر عن موطن الداء الحقيقي ، ويصرفه عن تلمس الدواء الشافي الناجع .

لقد لخص احد الباحثين الكبار ازمة الثقافة في الغرب ، قائلا : « هكذا تنتصب امامنا موازنة الغرب المعاصر ، على العظمة الصاحية والتقدم اللانهائي اللذين تركته المشروعات الخيالية ، يأمل بهما . ان الثقافة لتعرب ، وقد خابت ، عن أسفها ، او هي تشحب من الوهن . وليس ثمة من شيء اكثر ما يكون اليوم الحاحا عما كان قط من قبل ، مثل كيفية في « الكولتوركامبف » (الكفاح الثقافي (1) . »

والواقع الذي لا معدى عن اقراره ، هو أن الثقافة في الغرب ما كانت لتخيب ، لو انها وضعت آمالها في العقل والموضوعية والحس الانساني النبيل ، وبنت مشروعاتها على أساس من الاناة والروية والمنطق ، وصرفت كفاحها في سبل الحق والحقيقة والسلام العالمي . اما وقد اعتمدت العاطفة (الرومانطيقية) ، والخيال ، والدعاية ، والجنس ، لبلوغ اهداف تتلخص كلها في السيطرة والسلطة ، فقد كان لزاما عليها ان تفضي الى الوهن والشحوب ، ولا يبقى في يدها الا ان تعرب عن أسفها !

الا ان شيئا من كل ما حدث لا يبعث على اليأس ، والشعور بالخيبة حافز ، او ينبغي ان يكون حافزا ، لاعادة النظر في الاخطاء التاريخية ، ووقف ما نجم عنها من تيارات ، ومعاودة الكفاح الثقافي ، على أرض أثبت ، وبنور اسطع ، انطلاقا من افكار أصح ، نحو غايات أسمى وأنبل .

على الثقافة ان تكافح القوانين الجائرة ، وتسعى ما وسعها السعي في تطبيق القوانين العادلة ، في كل جانب من جوانب الحياتين : الشخصية والعامة .

وعلى الثقافة ان تقاوم الميعان ، والتخنث ، والانغماس في الموبقات والقشور ، واعداد الاجيال الطالعة لمهام وطنية ، وانسانية جليلة ، يتسع بها أفق التفكير ، وتعمق الشعور بالحاجة الى التفاهم الصحيح ، والتعاون النزيه .

وعلى الثقافة اخيرا أن تسعى وراء التقدم الاخلاقي ، بعد ان احرزت ما احرزت من فتوحات ، وغزوات موفقة في ميادين التقدم العلمي والتقني ، وان تستعيض في دعواتها عن الجنس بالحب ، وعن التحسر بالعزيمة ، وعن الوجود بالحياة ، وتوجه الناس ، كل الناس نحو فهم الحق واحقاقه ، وعزل الباطل وازهاقه .

وللمثقفين في جميع الفروع ، وعلى جميع المستويات ان يبدأوا بأنفسهم . والظفر في كل مجال ، وقف على العاملين المخلصين .

١ ـ انظر Guy — Willy Schmeltz, Bilan de l, Occident. Paris (La Colombe , 1961) P. 441

عبد اللطيف شراره

صدر حديثا
لن يضيع الغد
ديوان جديد
من وحي النكسة
للشاعر
حسن عبد الله القرشي
٢٥٠ ق.ل
دار الآداب